

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190855

UNIVERSAL
LIBRARY

OSMANIA UNIVERSITY LIBRARY

Serial No.

ع
۱-۸۹۲۵۲۱۰۸

Accession No.

۱۶۹۶۶

Author

Title

توضیح مؤرخ
آلاء و اصلاح

This book should be returned on or before the date last marked below.

الأم وأحلام

بمجموعة قصائد ومقالات من الشعر المنشور

بقلم

توفيق مفسح

خروج جامعة كولومبيا

الى التي اجربها كثيرًا
الى امي

اقدم كتابي هذا

الى

م. ١٨٤٢ - ١٨٤٢

مصر (١)

مصر:

هبة النيل - طريق العالم - عروس الصحراء -
مهد الحكمة .

أم المدينة بالأمس ، وفريسة المدينة اليوم .
مرت عليها قوافل الأيام والأجيال . فن الرعاة ، الى
الفراعنة ، الى اليونان والرومان ، والعرب والآتراك
وفي كل حين كانت مصر تطبع كل أمة فاتحة بطابعها الخاص ،
فتغير الأمم ، وتلعب بالشعوب ، وتبقى هي مصر لا تتغير

(١) اقترحت مجلة المراهيك التي تصدر في لندن على الناظم كتابة شعر متروحه

برسطة القلم اعلاه ثم ترجمها الى الانكليزية ونشرت في عدد المراهيك الصادر في

يكنسها الجوع والفساد والقحط ، ثم تتوالى عليها
الخيرات ، وتفيض عليها النعم .

وهي في كلا الحالين بسامة ضاحكة ، لا يزجها الفقر
والجوع ، ولا تبطرها النعم والعز

عظمتها كما نيلها ترتفع أحياناً وتنخفض أحياناً
ولها من تاريخها المجيد خزان من العظمة والمجد يفيض كرامة
على تاريخها الحدث ، بل أن تاريخ الأمم يغذى مجد اليوم



النيل :

خيوط من زمرد ، يتدلى من عنقها وينسكب على قدميها .

ما هذا ماء يجرى في النيل ، إن هو الاذهب ابريز

لولا ان كانت مصر صحراء قاحلة كواحة سيناء أو
كالربع الخالي .

في مصر لا يستطيع الإنسان الا أن يقول
(وجعلنا من الماء كل شيء حي)

قطع رأسك عمرو بن العاص ، فعشت رغم الموت
جسداً بلا رأس .

وهذه القرون الأربعون الجائمة وراء ذلك الظليل .

قل لنا الى من هي تنظر الآن ..؟

هي تنظر الى مصر ، الى شبابها الناهض ، الى قلبها الخفيق ،
الى مستقبلها العظيم

* * *

أى مصر:

أم المدينة بالأمس ، وفيمة المدينة اليوم .

أربعون قرناً تنظر اليك من وراء الاهرام .

لك يا مصر ماضيك وفيه العزاء ولك حاضرک وفيه

العمل والجهاد

أما المستقبل فله

الحب منى الموت (١)

بسط ملاك الموت جناحيه فوق فراش الولد الصغير
شمس ذلك البيت ، الطفل الذى تستمد منه العائلة كل
سرور و غبطة

كان مريضاً - مرض بعد أن مر عليه الربيع مراراً ثلاث
وساد السكون فى غرفة المريض المشرف على الموت
ولم يعد يسمع سوى تنهدات الأم المتألّمة - الأم التى تركت
المدى لشعورها الحى فسال من عينها دموعاً
ألقت رأسها على يدها وجلست شاخصة الى الأرض تبكي

* * *

جاء أبوه وقد أقفل محل أشغاله مبكراً
لم يتجاسر أن يكلم الأم لثلايزعجها ولم يقترب من فراش
الطفل خشية أن يوقظه

(١) نشرت فى مجلة الهلال

ورفع نظره فابصر ملاك الموت مخبيا فوق سرير طفله

يا له من منظر هائل مخيف ! ملاك الموت يطلب الودائع
ليرجعها الى خالقها

رحماك أيها الموت ! أشفق على هذا الطفل وارحم قلب هذه
الأم . خذني بدلا عنه أيها الموت واتركه عزاء لهذه التاعسة المسكينة
فحياتها بعده ستكون ممزوجة بالشقاء والحزن .

اقبلني عنه واجعل حياتي فداء لحياته

✧ ✧

فتحرك خيال الموت يبطء وأشار الى الوالد اشارة
معناها « اتبعني » .

الى آخر الكون اتبعك . وفي وادي ظل الموت أسير معك ،
لأنني أبذل حياتي عن ابني . وغبطة الوالد أن يكون
ضحية عن ابنه .

سر أيها الموت فامشي ورايك .

✧ ✧

وسار خيال الموت بسرعة البرق على أجنحة الرياح . وسار
الآب الحزين وراه يجرى .

مر به في الحديقة، تحت الأشجار الباسقة الطويلة، في ظلال
الأغصان على الأعشاب والأزهار .

خرج به الى المدينة، مر معه أمام محل اشغاله . انتقل به
من شارع الى آخر .

أراه أصدقاءه وعشراه . أسمعهم أصواتهم وحديثهم . وقف
به أمام البورصة، لي شاهد كل ما في هذا العالم من شغل،
وعمل، وربح، وخسارة، ومزاحمة، وركض، وجد .

العواطف البشرية تتقارب لتتعارف ثم تتزاحم فتتطاحن،
والمطامع تتلاعب بالعقول وتقود الناس بخيوط من حرير الى التعلق
بمح هذا الكون - والكون هادىء صامت يتلعب دقائق الحياة
قاذفاً بها الى الهاوية الأبدية .



ووصل الخيال الى أبواب المدينة ليخرج منها الى
مقر الأرواح .

وكانت أشعة الشمس الذهبية تتكسر على أبراج المدينة ومآذنها
فترك في القلب انعطافاً يزيد في الانسان ميله الى هذا العالم الفانى .

اصطكت ركبتنا الأب والتفت الى الورا ليودع المدينة
بنظرة فوقع الى الأرض .

رحماك أيها الموت . لا . لا . لا يمكنني أن أموت . لن أموت
ولن أكون فداء عن سوى .

إن نفسى ترغب الحياة وإن كانت رغبتى تطلب الموت .

لا أزال شاباً في مستقبل العمر . وكل ما في هذا العالم
من جمال ولذة وحب يدعونى إلى الحياة والراحة والسعادة .

فلا أريد أن أموت فاذهب أيها الموت واسلب نفسى من تشاء



وعاد خيال الموت باسطاً جناحيه فوق فراش الطفل .

وجاء الأخ وعلى وجهه سحابة انقباض .

ماما !

ولكن الأم لم تجب بل ظلت شاخصة إلى الأرض تبكي .

ورفع الأخ عينيه فأبصر ملاك الموت فارتعش من الخوف .

وأبصر وجه أخيه الطفل أصفر كوجوه الأموات .

في المدينة أطفال كثيرون فلم لم تختَر أيها الموت سوى الطفل

الذى نجبه كثيراً .

لماذا لا ترضى من هذا البيت نفساً بدلاً عنه . ها أنا أيها الخيال
المرعب خذني بدلاً عن أخي .

وظفرت الدموع من عيني الأخ فتحرك ملاك الموت وأشار
إشارة معناها « اتبعني » .

نفجر الموت وخرج الأخ وراه .

سار في شوارع المدينة . أراه رفاقه عائدين من المدرسة
ينشدون ويلعبون ويتحدثون .

اسمعه ابن جيرانهم يغني لحناً كان ينشده هو نفسه قبل ذلك الحين .

ذهب به الى جانب البيت الذي تسكنه صديقه الصغيرة التي
كان يرسم الصور معها في ذلك الصباح .

أراه الأزهار التي كان يساعدها في غرسها . أبصرها جالسة في
طرف الحديقة تحت ظلال الصفصاف ويدها كتاب تقلب صفحاته .
ذهب به الى دار الالعب . مر به أمام مشهد الصور المتحركة .

أبصر هناك صديقاً تقدم ليكلمه . لكن الموت كان يسير بسرعة
البرق على أجنحة الرياح — الى اللانهاية .

وقع الأخ الى الأرض مغشياً عليه .

فناداه الخيال بصوت مرعب قائلاً . انهض .

لا . رحماك أيها الموت . اذهب وخذ نفس من تشاء
واعف عني فلا أحب أن أموت وليس لي القوة لأضحي بنفسى
فداء عن غيرى .



ورجع خيال الموت فبسط جناحيه فوق فراش الولد الصغير .
وجاءت أخته من المدرسة - فتاة صغيرة جميلة بكل مافي الطفولة
من الجمال واللفظ والوداعة واقتربت لتجلس بجانب أمها .
أبصرت خيال الموت مظلاً فراش أخيها فارتعبت خوفاً .

ماذا تريد أيها الشبح المخيف ونفس من تطلب من هذا البيت ؟
أتريد أن تأخذ روح أخى الصغير ؟

ألا تشفق عليه ياموت ! انه لا يزال طاهراً كزهرة الحقل ، ونقياً
كندى الصباح . صغيراً لم يختبر من الحياة شراً ولا خيراً . هذا أخى
وحبيبي . خذنى بدلا عنه ياموت .

ورفع الموت يده وأشار « اتبعينى » .

ومشى ومشت الفتاة وراه .

ذهب بها الى الحديقة ، مر بجانب ينبوع الذى كانت مياهه
تندفق كنضارة الحياة من وجنتيها .

سارت وراهه دائسة على أزهار البنفسج التي زرعتها في ذلك
الصباح — التفتت فرأت الشجيرات التي غرستها قد نمت وكادت
تصبح منظراً جميلاً مبهجاً. خرج بها الى الطريق . رأت رفيقاتها
الفتيات يلعبن بالحبل . قادهما في منعطفات المدينة الى كل مكان تعرفه
وتحبه . وقف بها في دار المدرسة لتودعها لآخر مرة ولكنها هناك
لوت رأسها الى الورااء تريد أن تعود .

لا . أيها الموت . لن أذهب معك ولا أريد أن أموت .
اذهب وخذ نفس من تشاء .

فالموت صعب والحياة لذيدة جميلة



وعاد الموت فخيم فوق فراش الولد المريض

وكانت نبضات قلبه تكاد لا تسمع وهو يعالج النزاع الأخير
ليرحل الى الأبدية .

نهضت الأم بنفس مرة واقتربت لتودع طفلها — لتضمه
للمرة الأخيرة .

حنت رأسها لتضع فها على شفثيه فخشيت أن تمتص منه
بتلك القبلة آخر نبضة للحياة .

هذا الطفل يا موت قطعة من لحمي ودمي — فلذة فؤادي
وحياتي — فلا تجعلني أقف على قبر ابني بل هبني من لدنك السعادة
والمجد في أن يقف الابن على قبر أمه .

أما من شفاة أو تضحية أيها الموت ؟ فأقبل نفس
الأم فداء عن نفس الابن .



وأشار ملاك الموت فتبعته الأم الى الموت ، الى الفداء ، الى
التضحية

عبثاً مر بها في الحديقة ليربها ما غرست وما رتبت وما اجتهدت
لتجعله جميلاً . من شجر ، وأزهار ، ومجاري ماء ، ومزروعات
خضراء .

عبثاً حاول أن يهيجها بشوارع المدينة ومنتزهاتها ليربها كل
مايسر النفس من ايجاد هذا العالم .

باطلا أخذها الى نادي النساء الجديد الذي كانت عضواً عاملاً فيه .

باطلا وقف بها أمام المنزل حيث أراها الخدم يعدون المعدات
لاحتفال ذلك المساء الذي كانت احدى المدعوات اليه .



هناك غصت الأم وجرت من عينها دمعة .

• وتردد ملاك الموت في مسيره ••

أشعر بضعف في عزم الام ؟

أنخون الام في محبتها ؟ أيتغلب حب النفس على حب الابن ؟

ومتى أصبحت محبة الام خيانة - بالفساد الكون وشقاء البشر !

•*•

ذهب بها الى بيت أختها التي تحبها كثيراً . رأتها تلاعب أطفالها
وتداعبهم .

مر معها أمام غرفة صديقتها الخاصة التي كانت تلعب على
البيانو في ذلك الحين .

لكن الام مشت وراه الموت برأس خاشع وعينين ذابلتين
ووقف ملاك الموت وظل واقفاً لا يتحرك .

سر أيها الخيال وأسرع فحياة الطفل رهينة الموت - عجل
لنصل الى أبواب الابدية . قبل أن تطلب حياة الطفل من ملاك
سواك - أسرع لتمكن الام من تضحية نفسها
فداء عن ابنها .

•*•

فابتسم الموت - وهل للموت ابتسامة .



التضحية على قدر: المحبة . فاسرع يانموت

. ورفعت أنظارها الى السماء قائلة « ولا تدخلنا في تجربة »

ورفعت رأسها فأبصرت ملاك الموت منتصباً متظراً
استلام الوديعة .

ركعت الأم بجانب سرير الطفل . بسطت يداها في الفضاء
متوسلة بقلب حزين منكسر .

رحمة أيها الموت . لأن لم تشفق قبلاً على سواه ولم تعود نفسك
الرحمة فرقاً بالأم .



أمام هذه المحبة الخالدة انخذل الموت واختفى .

فر هارباً بسرعة البرق على أجنحة الرياح .



وعادت الأم الى البيت فاذا الطفل شفي تماماً .

ولم يزرها ذلك الملاك بعد ذلك الحين .

الى المثل الأعلى (١)

لقد تعبت عيناى من النظر اليك
عيناى ضعيفتان لا تحيطان بكل جمالك ومجدك
أما نفسى فكبيرة جداً تسع كل عظمتك وكمالك:
غسلتها بدموعك وطهرتها بأنفاسك .
طردت منها كل آثام البشر وخطاياهم وشورهم
جعلتها مسكناً لك يا ذات كل نقاء وطهارة .



لقد تعبت روحي من التأمل فيك .
أنت صورة خيالية (مثل أعلى) تتراكم أفكارى
وراءه . ولا تدركه .
أنت أجمل شيء فى الدنيا لأنك امرأة جميلة .

(١) نشرت فى مجلة الهلال

ألا تشعرين بتأثير جمالك على قلبي ..!



حين أبكي تبتسمين وما أشد التشابه بين ابتسامتك ودموعي .

أنا أغمض عيني فاسكب دموعاً من قلبي ، ثم أفتحهما فأجد
ملك الدموع قد أصب على الأوراق .

وأنت تنظرين الى تلك الكلمات فتبتسمين ، كأنك لا تشعرين
أنها عواطف ذائبة ذرقتها نفس حزينة متألمة .



حين التفت الى هذا العالم لا أجد سواك ! .

أنسى الجنس البشرى عندما أراك ! .

حين أنظرك ينتعش فؤادي ويتولد شعور غريب في أعماق نفسي

شعور لا أعرف ما هو ولا يمكنني أن أخفيه

فقل لي

أهذا هو الذى يسمونه حباً؟

على الوادي (١)

أسمعت ترنمة الوادي - يوم كنت على الوادي ؟
أرأيت خريير الماء واندفاعه ؟
أنظرت الأعشاب والرياحين النابتة على ضفتيه ؟
أرأيت الطيور وقد هجرت مأويها وجاءت تحتسيه ؟
أشعرت بالربيع الجميل ينحني ليلثم بشفتيه قدمي الوادي ؟
أوصلت الى ، النبع ، الجالس في رأس الجبل يتسهم ويتألم !
أعرفين أن النبع ، عاشق قديم ، عاصر الأجيال وكانت له
حبيبة ماتت في ليلة من ليالي الشتاء فأصبح فصل الشتاء كله
تذكارةً أبدأً يملأ به الطبيعة أنيناً ويفيض على الأرض دموعاً ؟
هذا الماء المندفع في حنايا الوادي هو دموع غزيرة
تنساعد من قلبه - دموع الأخلص والأمانة والمحبة حتى الموت .

أليس في ذلك نعمة محزنة تزيد في نفسك جمال الوادي
وتوجد فيك بهجة الحياة، وتجعلك تشعرين بلذة الحب !

* * *

في قلبي جرح عميق كالوادي
طويل ملئ حفرته عينك
يجري حبك فيه كما يجري الماء في الوادي
ينبوعه الحاذق - ويسمع لخريه أنغام شجية تملأ فضاء روعي
كهوفه باردة مظلمة تنيرها ابتساماتك
تنبت على جوانبه آمال غرامي ورياحين حي.
ينحني ربيع الشباب ليثم بشفتيه أقدامه - حيث يجري حبك
وتعطره رائحة أنفاسك

* * *

وغدا . ينتهي الشتاء وينقضي الربيع
غداً ينشف الوادي ويذوب جماله
غداً تذبل الرياحين وتيبس الأعشاب

غداً تهرب الطيور وتتحول حرارة الشمس المنعشة الى نار محرقة
والمكان الذي كنت تجدين فيه أنساً يصبح سامة وكدرأ

* * *

لقد جف النبع ، بعد أن سكب دموعه

لقد ولى الشتاء آخذاً معه الريح

لقد نشف الوادي وهجره عشاقه

لجاوا الى البساتين القائمة بجانب

* * *

ما خوفي على الوادي ياربة الوادي

خوفي على قلبي - على وادي الحب التي تجري فيه

خوفي أن تقطع الحائط عنه فينشف - أن يجف حبك فيذبل

* * *

تعالى نعود الى الوادي تتأمل شقاءه

تعالى نرى كيف انتقل جماله الى ما حوله

أتذكرين يوم كنت على الوادي وكان الوادي جمالا



أندكرين كيف كانت البساتين الخضراء بجانبه قفراً موحشاً —
وهذه الأشجار كيف جردتها ريح السموم من جمالها فنثرت أوراقها
على الأرض ووقفت تستقبل الشتاء بأبدان عارية ناظرة
بفضة وألم الى ماء الوادي ينساب كحيوط من فضة



ما أحلى التضحية

أعرفت أين ذهب ماء الوادي ؟

تحول عنه وانسكب في بطن الأرض ليسقي جذوع الأشجار
وأليافها كي ترسل غذاء الى الأغصان المرتفعة في الهواء
لتضج أزهاراً وأثماراً

ألا تبصرون أن جمال الوادي قد تحول الى بساتين وجنات ؟

كأنم الأزهار وبراعم الأثمار هي نقط ماء الوادي

الأجاص والكرم والتين والتفاح — هذا ماء الوادي ، هذا جماله



وأنت ياربة الوادي — أتقومين بالتضحية كما الوادي

حين ينقطع مجرى حبك عن وادي قلبي ؟

أيتحول الى عواظني ليولد فيّ حباً ؟ أيسير الى دماغي
لينشئ بي قوة

أينسكب في نفسي لتتحول أيامي العارية كاشجار الشتاء ، الى
حياة هادئة مملوءة سعادة وحباً — وأمالاً وأحلاماً وراحة وهناء ؟

عواطف أم "

انهض يا بني فالنهار قد انقضى ، والشمس كالبحيل أخذت تجمع
ذهبها المتناثر على الأرض

من أين جاءك هذا النوم الهادئ العميق ؟ ومن ذا الذي
مسح شفئك بالمعاني اللذيذة ؟

أنت كأس زهرة حياتي الذي يقبله الصباح كل يوم ، وتندفق
حرارة الشمس في صدره كل دقيقة

أنت الطفل الصغير الذي يملأ العالم بأسره . أنت لي . فمن
هو ذلك الساحر العظيم الذي وضع خزائن الطبيعة بين يدي ؟



لقد عرفتك قبل أن تولد وعاشرتك منذ بداية الأجيال والدهور

يوم كنت طفلة صغيرة ألعب على شاطئ النهر ، يوم كنت
أجبل من الطين تمثالاً ، وأخيط من الخزقة ثوباً ، وأرسم على
الأوراق طفلاً

ذلك الحين كنت معي . انت كنت توحى الي افكاري ، وأنا
كنت أنسج على منوالك تماثيلي ولعي

* * *

يوم كنت منطرحة على فراشي أتمخض بالآلام والأوجاع

أسندت رأسي الى سريري أبكي

بشروني بمجيثك وسمعت لأول مرة صوتك

صرخت ! - أعطوني ولدي

أخذتك بين يدي كتلة من اللحم والدم

يا له من شعور غريب انتشر في طيات فؤادي

كم ارتعشت من الفرح وسرعان ما زالت الأوجاع والآلام

* * *

أن نسيماً لطيفاً يتموج بين شفتيك فأعرف أن معناه كلمة «ماما»

والتفت الى عينيك فأراها تجولان بين نجفون تمنى لو أنها

شفتان لتلفظ كلمة «ماما» ،

وأرى ذراعيك الصغيرتين ممدودتين الى الامام ولو وضعو

العالم بينهما لرفضناه لأنهما تريدان «ماما»

ثم أميل الى قلبك ، وهناك مجال الشك والريب
أبصر في زواياه صورة عميقة بعيدة أخافها وأغار منها
قلبي يا ولدي

قلبي قبل أن تأتي تلك الصورة وتزاحمني على قبلاتك
ابتسم لي فابتسامتك اليوم لي وحدي لا يشاركني به غيري
ضمني بين ذراعيك بلهفة فاني حين أضمك أكاد أرجعك
الى أحشائي

أنت كبدي تمشي على الأرض يا ولدي
أترى يعرف الأولاد ما تقاسي الأمهات ؟



أنا أغني لك لنتام ، وأنت تغني لي لأستيقظ
حين تناديني باكياً أشعر أن فك قيثارة الحان
وحين تحمدق في وجهي أخال نظراتك ريشة عود تحرك
أوتار قلبي

أنا الشاطئ، المبسط عند قدمي حياتك أداعب أمواج مدك
وأنت صغير ، وأخاف أمواج جزرك حين تكبر

في طفولتك رائحة طهارة استنشقتها فتعشني

ليت ولدي يصير رجلا ويظل قلبه طفلا ! ليجمع بين حكمة
الرجال وطهارة الأطفال ، فليثل هذا نعيم الأرض
وملكوت السموات

في طفولتي رأيتك في القمر يا بني
مددت يداي أريدك فضحكوا مني
وأنا اليوم أرى القمر فيك يا طفلي
فأمد يدي فأجد بينهما بدري

° °

لماذا يضحك البحر ، وتغنى الأمواج ، وتبتسم النجوم ؟
هل تعلم البحر نغامة من شفقتك ؟ هل سرقت النجوم لمعانها
من مقلتيك ؟

أنا لولاك لا أرى للبحر جمالا ، ولا للحياة رونقا وبهاء

° °

لقد هزرت سريرك يميني يوم كنت طفلا - وها شمالي
أطرحها بين يديك لتهز بها ما تشاء

وغداً أرميك في سوق العالم الواسع يا طفلي
فاذا ضعت بين أمواج الحياة المضطربة فأملك منارة واقفة
على الشاطئ البعيد

ابتسامتها تنير سبيلك الى ميناء الهدوء والأمان
أنت ستعرف الناس بي وستكون صورة مجسمة لي
ستقول لهم من هي أمك
عند ذلك يباركون أو يشمتون
واذا شمت الناس بي ، يا ضياع أملي في ابني ، يا ضياع أملي
في وجودي ، وحياتي



أنا انتزعت الشباب من صدري وغرسته في وجنتيك يا بني
لقد رشحت النضارة من خدودي ، ومشى الذبول الى عيني
لقد سكب روحك في روحي وهذا شبابك يتغذى
من شبابي
كلما زدت أنت قوة زدت أنا ضعفاً ، وكلما نفت أتمتع بجمال
قوتك شعرت أن بها يكمل ضعفي

ومتى دنا الموت من أمك يا طفلي ، تسير في سيلها الى
حيث لا تدري

لكن روحها تظل بجانبك تمشي
فاذا عملت عملا فقل : عن يميني أمي

؟... (١)

أرأيت الأمطار الكثيرة التي هطلت اليوم؟

هي دموعي والطبيعة تبكي بيوني!

° °

أسمعت أذنك هبوب الأرياح وقصف العواصف؟

هي تنهداتي والفضاء يتألم عني!

° °

أرأيت الجو الأسود المتلبد بالغيوم؟

هو حظي!

° °

أرأت عينك الأشجار التي جردها الشتاء من أوراقها

فانحنت أغصانها إلى الأرض؟

هي حرام سببي واحرم سببي وامان حياي ،

✧ ✧

أرأيت قوس قزح الجميلة ذات السبعة الوان ؟

هي ضلع من أضلاعك أخذته الآلهة من جانب قلبك لتفتح
للتاعسين باباً الى ذلك القلب !

✧ ✧

أرأيت اللحظة الواحدة التي أشرقت بها الشمس وأنار الجو
وسط انهطال الأمطار وهبوب الزوابع ؟

تلك ابتساماتك !

✧ ✧

أشعرت بالبرد القارس الذي ارتجفت منه أعصاب الطبيعة ؟

ذلك قلبك !

✧ ✧

أرأيت البرق الخلب الذي يظهر كالسارق ويختفي كاللص ؟

تلك وعودك !

✧ ✧

ما أشد الشتاء وما أقساه
أيامه لحظة تمر كاجتماعي بك ، ولياليه طويلة مظلمة كبغادك عني .



اسمعي !

أن الطبيعة تهمس في آذان الكون واعدة أياه بربيع جميل
يأتي بعد زوال غضبها وانقضاء الأمطار
وأنت ، أتعديني ؟

وعلى الأرضه السلام (١)

كُتبت لعيد ميلاد سنة ١٩٢١

يوم ميلاد ملك السلام رأيت الملائكة تهبط صامته نحو
بني البشر ثم رأيتها ترتفع الى السماء وفي قلوبها غصة اذ لا تتجاسر
أن تهمس في أذان الكون كعادتها في كل عام « وعلى الأرض
السلام »

ذلك لأن السلام مات من الأرض ، ودفن في ظلال فساد البشر
لقد هرب من وجه المدفع بعد أن سمع بأذنيه رنين الحديد
وأنين الضحايا

لقد طرده الناس فعاد الى السماء ، اذ لم يجد على الأرض مكاناً
يلتجئ اليه .



بالأمس رأيتك في بيت لحم يا ابن مريم — طفلاً صغيراً
وملكاً عظيماً

(١) نشرت في مجلة المتطف

رأيتك هارباً الى مصر من وجه السكين التي قطعت أعناق
الأطفال في ذلك الجيل

أما اليوم فألى أين تهرب والمناجل الدموية تقطع أعناق
الرجال— ليس في اليهودية فقط .. بل في العالم الواسع الكبير أيضاً
التجأت الى داخل نفسي فاذا هي نائرة مضطربة كبركان يلهب،
والتفت الى العالم فاذا هو شعلة من غضب و نار فوقفت لا أدري
الى أين أمضي

»

بالأمس مشيت بجانبك على ضفاف بحيرة الجليل الهادئة . واليوم
اقتربت منها فاذا هي بحيرة من دماء

رايتك وأنت تأمر أمواج البحر بالسكينة والهدوء فتطيعك
خاضعة صاغرة، والتفت الى أمواج العالم المضطربة فأبصرت قارب
خلاصك يتحطم على صخوره وقد ضاع بين طيات الأمواج النائرة
رأيتك نازلاً من صفا الى كفر ناحوم

أبصرت آثار قدميك الناعمين على رمال شاطئ البحيرة
أما آثار تعاليمك الجميلة السامية فلم أجد لها أثراً في طيات عقول
البشر الذين يدعونك بالمعلم الصالح

رايتك بالامس تشبع الجوع فصحت من اعماق قلبي -
تعال الآن أيها المعلم وأشبع الجوع فهي اليوم أشد جوعاً
منها بالامس

لقد تسلط عليها جوع النفس وجوع الجسد معاً

لقد عشنا خمس سنوات على خمسة أرغفة من الخبز. وفي ختام
ذلك الفصل الفاجع رفعنا الفضلات كما رفعتها أنت قبلنا واذا هي
قفف كثيرة من عظام واشلاء ضحايا الجوع والحرب

عظام أبناء واحفاد الذين رفعت من فضلات طعامهم سبع
قفف ممتلئة

فتشنا عن تلك الفضلات الكثيرة المشبعة فوجدناها مذكورة في
تعاليمك

لكننا رأيناها طعاماً قديماً بائناً لا يوافق معد هذا العصر، ولا
يلائم طعمه الحلو أذواقنا المرة القاسية

رأيتك تمد يدك فتشفي الأعمى والأبكم والمفلوج، فوددت لو تمد
أناملك الآن لتشفي البشرية العمياء المفلوجة المنهوكه الروح

ان الراعي اليوم لا يستطيع التمييز بين الغث والسمين -
لا يمكنه أن يذهب ليفتش عن الحروف الضال فإن القطيع جميعه قد
ضل وزاغ

أن ديك بطرس لا يزال يصيح في كل فجر — والبشرية لا تزال
تتكرك كل يوم وكل ساعة

وإذا جئت إليها من جديد فأنها تصلبك من جديد أيضاً



أنا لا أصدق الملائكة لو سمعتها تنشد ، وعلى الأرض السلام ،
لكنني أصدق تعاليمك يا معلم حين قلت ، ماجئت لألقي سلاماً
بل سيفاً ،

لقد صدقت نبؤتك واشتعل السيف بالبشر

أنظر من علوك الى قلوب الامهات الحزينات المتشحات بالسواد
الجالسات بجانب موقد النار يوم عيد ميلادك

جميعهن راحيل تبكي على اولادها

ان في رأس السنة الجديدة تذكارات مفعجة مؤلمة دامية
لعواطفهن

ما اسلم قلوب اولئك الامهات

ان لهن عزاء واحد ، لكنه عزاء كاذب يا معلم . فعزاؤهن

الوحيد أن فلذات اكبادهن استشهدت في سبيل انتصار مبدأ

مبدأ السلام والحق ا

يا لتعاسة اولئك الامهات ا

اين هو السلام وأين هو الحق؟



يا لهم من فريسين يا معلم . يلعون اجلل ويتغاضون عن الأبرة

قم يا معلم . فالهيكل البشري الأعظم قد امتلأ بالصياقة والدجالين
وباعة الأثمار المضرة المنتنة . لقد تعالت روائح العفونة من جميع
انحاء الأرض ، والعالم اليوم يحتاج الى سوطك لطردهم الذين يعبثون
بهيكل الحق والسلام

ان العواصف السياسية الهائلة تهب بشدة على العالم ، لكننا
نكاد نتناسى هياجها امام الزوابع الاجتماعية التي تتهدد سلامة
الكون وراحة البشر

ان وميض نيران الحروب يلعب وراء بنود شروط الصلح

لقد خرجت جميع الشعوب من هذه الحرب غاضبة ناقمة ،
الظافر او المنكسر غير راض ، كلاهما ينتظر حين تدق الساعة
معلنة نشوب حرب اخرى ،

وقلوب البشر واجفة خائفة لأنها تكاد ترى العقرب الكبيرة

ترعش كأنها تريد ان تتحرك

* * *

بالأمس قام شيخ جليل اسمه تولستوي فأراد ان يقلدك يا معلم
هجر بيته وأهله ، وعاف امواله وأملاكه ، وطاف يبشر الناس
ويعلم الجموع

ان تعاليمك المقدسة خفيت على اليهود فصلبوك . أما اولئك
الأقوام فقد خفيت عليهم تعاليم فيلسوفهم فصلبوا انفسهم على
خشب اسمها (البشفيكية)

ان العقلاء في كل مكان ينظرون ويتألمون

انهم يسكبون دموعاً كثيرة

ذلك يذكرني بالدمعة التي سكبها ملك المجد

د بكي يسوع ،

تلك الدمعة التي تحدرت مع الأجيال كانت الأساس المتين
لكل ما بني في النفوس من التسامح والتساهل والمحبة والإيمان
والاحترام

نحن لانسى دموعك لأجلنا يا معلم

تلك الدموع هي السلسلة الذهبية التي تربط السماء بالأرض
هي البحر الواسع الذي يغسل جميع الذنوب ويظل طاهراً نقياً
هي أشرف ما امتص الهواء ، وأقدس ما شرب التراب
انت سفكت الدماء في سيل الغير ، فلا بدع ان سكبت
الدموع

لكن ما الذي دفعك الى البكاء ذلك الحين؟

من هو السعيد الذي بكيت لأجله يا معلم — هل امتلأت روحك
الشاملة بالحزن الفكري العميق على المجموع النعس الأعمى فنزلت
رحمتك من العيون دموعاً؟

ان انتصارك العظيم كان مغلفاً بروح حزنك الفكري الخالد
— ذلك الحزن الفكري الذي يمنح الوجه كمالاً ، والروح جمالاً
ليس في ذلك الانتصار الأبدي شيء من غلبة يوليوس قيصر
ولا من بطش نيتش الألماني

انه انتصار الهدوء ، والسكون ، والسكوت

ان الحزن الفكري الذي تجلى في دموعك كان اعظم عظة من
الاله الى الإنسان

انه رمز لاسمى امنية تحدرت مع همس الآلهة الى ابناء التراب

° °

أنت لم تات لتبني يا معلم ، بل جئت لتهدم

الاساس فاسد متساقط لايقوم الا بهدم البناء واعادة بناه

لقد هدمت وأنت مطرود محتقر على الأرض . وبنيت وأنت

مهان مرتفع على الصليب .

لقد سكبت البشرية كل جريمتها في صدرك الواسع . وأنت

غفرت لها .

فلماذا عاد الشر الى الأرض ، والشقاء الى البشر ؟

ان الانسانية اليوم سفينة محطمة تتقاذفها الأمواج وتتلاعب

بها الأرياح فلا تجد ميناء أميناً تلقى مراساتها فيه .

° °

ورأيتك على صليب من خشب في أهيب مواقفك يا معلم

وكان الصليب طريقك الى السماء والمجد .

° °

واليوم أرى البشرية على الصليب أيضاً — صليب من ذهب .

لكنه طريقها الى الخراب والموت .

مجنونه من...؟ (١)

- ١ -

الزواج هو الحب والحياة .

مجنون من لا يجب ويتزوج !

* * *

ها أنا جالس أمام موقد النار .

زوجتي بجانبني مضطجعة على مقعد من الخمل الاخضر .

عيناها البراقتان تنظران الي بانعطاف ينبعث منهما بريق ينير
أعماق نفسي

نظراتها ريشة عود تضرب على أوتار قلبي .

وجنتها جمرات النار الملتهبة أمامي .

خداها يلمعان من أشعة النار فأخال اللمعان منبعثاً من انعكاس
أشعة العيون .

(١) نشرت في مجلة الهلال

شعرها الأسود الطويل كغمامة سوداء على رأس
جبل أبيض

قلبا الناعم الرقيق يخفق بالحب الصامت السامي .

أسمع نبضاته المتوازنة فأخاها نغمات موسيقى تملأ
ضياء روجي .

ما أشد حرارة ذلك القلب ، من أين لهذه الجمرات المشتعلة
ثل هذه الحرارة المنعشة القوية ؟

بماذا أشبهه ؟ — أشبهه بالذهب ؟

لكن من أين للذهب الوهاج ما لقلبها من الحرارة والنور ؟

أراها تبسم !

أشعر بالهذه الابتسامة من التأثير في أعماق قلبي ؟

لقد انفصلت شفتاها الرقيقتان .

ليتها لاتتكلم فاظلم معتقداً أنها صنم جميل واني مجوسي أحرق النار
أمام آلهتي المحبوبة المحترمة .

° ° °

ها طفلها قد استفاق با كياً .

لقد ذهبت تهتم به . ما أطول هذه الثواني ! لماذا لا أتبعها
الى غرفتها ، فأنا أشد احتياجاً إليها من الطفل .
أنا طفلها البالغ الرشيد .

لا حاجة الى جمرات النار فالحرارة والنور حيث تكون هي
أين أذهب هذا المساء ؟ . وهل في العالم كله مكان آخر أجد فيه
حياة لنفسي ؟ .

لقد أقفلت محل أشغالي باكرآ لأحضر سريعاً الى البيت حيث
أجد سعادتي وحياتي .

أهذا هو الزواج ؟ أهذه هي بركة الحب .؟

إذا فالزواج هو الحب والحياة .

مجنون من لا يحب ويتزوج !

— ٢ —

الزواج هو الشقاء والتعاسة .

مجنون من يتزوج ليشقى ويتعس

✧ ✧

ها أنا جالس بجانب موقد النار .

زوجتي متكئة على مقعد خشبي قديم .

انها لاتزاحمني على الجلوس بجانب النار التي تكاد تنطنيء وغلاء
الوقود الفاحش يمنعنا من مشتري فخم لهذا المساء .

ما أشد هذا البرد القارس .

نظراتها تزيدني برداً .

عينها الضعيفتان تذبلان قبل انطفاء هذه الجمرات .

جيينها متجمد تحت أثقال الأيام ، وعذاب الساعات التي تمر
بالجدال والخصام .

تحالها في الحنين مع أنها لم تبلغ العشرين .

نبضات قلبها المضطرب دقات حزن تذكري بالموت .

انقبضت عضلات فها الى حد أنها لو شاءت أن تبسم لما استطاعت .

وجهها العالي كجبل ناري وشعرها الأسود المشوه كدخان
يتصاعد من رأس ذلك الجبل .

يا لها من شيء ، تافه .

أتراها تشعر بشدة كرهها ؟ ويلاه ، أتراني أشعر بشدة
احتقارها لي ؟

لقد ضربتني أمس ولا أزال أشعر بألم في ذراعي .
أريد أن أقضي المساء عند أحد معارفي . لكن نظراتها الوحشية
تهددني بهبوب العاصفة فلن أفعل .
لقد كنت آخر رجل أقفل دكانه .
أيتها السماء ! متى يطلع الصباح فاسرع الى محل أشغالي .
ليت طفلتها تفيق الآن باكية فتقوم هذه التاعسة عني
لماذا نسكن معاً في هذا البيت الفارغ من كل شيء سوى
« انا وهي » .

ما الذي يربطنا معاً — الشقاء ؟ الفقر ؟ التاعسة ؟

كلا . . . الزواج !

رباه . اذاً فالزواج هو الشقاء والتاعسة ؟

مجنون من يتزوج ليشقى ويتعس !

عيد ميلاد . . . (١)

عام ١٩٢٠

في مثل هذا اليوم ولد يسوع

وفي مثل هذا اليوم ، بعد مرور سنة . نعيد لمولده مرة أخرى .

من هذا العيد نستمد سروراً يدوم معنا الى مجيء العيد
الآخر - وهكذا الى ماشاء الله تبقى ولادة يسوع بهجة
مستمرة لا تنقطع أبداً .

فما أعلى وما أحلى أن يكون لنا في كل يوم عيد
ميلاد يسوع



أنا أعيّد ميلاد يسوع كل يوم أراك

ذكرك الذي لا يفارقني - نجم المجوس يهدينني الى الحقيقة

دموعي وعواطفي وحيي - ذهباً ولباناً ومرراً أسكبها عند قدميك

(١) نشرت في مجلة الهلال

فؤادك مذود بيت لحم حيث أتجدد كل يوم واقترب الى
المولود في المذود

° ° °

حين تتكلمين اسمع الملائكة تنشد « المجد لله في الأعالي وعلى
الأرض السلام وفي الناس المسرة »

حديثك لي — عظة على الجبل

كلامك العذب .. فصل شريف من رسالة القديس

شعاع الطهارة المنسكب من عواطفك « اردن » اغتسل به كل

يوم وأبرأ من جميع ذنوبي

عينك حين تتحركان — « أنا نور العالم »

حنوك وانعطافك — « تعالوا الي يا جميع المتعبين »

تسامحك وسكوتك — « اغفر لهم يا أبتى انهم لا يعرفون ماذا

يفعلون »

فأنا أبارك لك بالعيد اليوم شاكرأ يسوع الذي أوجدك لي

عيداً أعيد به كل يوم للطفل المولود مرة واحدة في العالم . وللعالم

ولي يولد بك العيد كل لحظة في كل يوم

على ضريح مه أمب (١)

في منتصف الليل غمرني الظلام الحالك السواد .

وكانت الطبيعة نائمة في أحضان الهدوء والسكون ولم يكن في لوحة الكون الواسع سوى نجوم صغيرة بعيدة تتألق كأنها رؤوس مسامير لماعة دقت في صدر السماء لكي لانهبط على الارض .

تقدمت بخطوات مرتجفة تحركها روح تعبت من الضياء والنور وركعت بجانب رمم التراب الكثيفة المحيطة بضريح من أحب .

لم أتجاسر ان أرفع عيني الى فوق لاني شعرت أن الأرواح البشرية المائلة الفضاء تستهزيء بي قائلة ، تراب يعاقب التراب .

سكنت دموعي على ذلك الحجر البارد القاسي المنصوب على القبر رمزاً الى الموت .

الصقت أذني بالأرض فشعرت بتموجات روح داخل القبر وسمعت خفقان قلب ينبض فتهتز له دقائق التراب المطروح عليه أبكي .

أحدقت بعينين مغرورتين بالدموع فتخيلت اني أرى داخل القبر

عينين مفتوحتين وشفيتين ترتعشان ولا تتكلمان وقد انسدل على ذلك
الجسم اللطيف الذي أحبته بالامس شعرناعم لطيف طويل كأنه كفن
أسود يكفن كل ما عرفت في هذا العالم من بهاء وطهارة .

تخيلت ذلك الجسم الذي كان لدي أعز ما أملك وقد أخذ الانحلال
الطبيعي مفعوله منه فلم أتمالك أن بكيت صائحاً من أعماق قلبي .

الطبيعة استنشقت روح من أحب بقبلة واحدة، والقبر انتزع
كل جماله بديلة واحدة .

أنا لأخاف الموت ولكنني أخاف القبر ،

الموت ضجعة الأبدية اللذيذة التي أبتسم لها وأحلم بها — أما
القبر فظلمة باردة لا أتجاسر أن افكر فيها .

الموت أرواح تعانق الأرواح .

أما القبر فتراب يعانق التراب

أنا لم أفهم ما هو الموت قبل أن يمد يده الى من أحب .

حبيب مات في زهرة العمر فلم يمش الى الموت مثقلاً بالسنين
لكن الموت جاء اليه باكراً جداً .

نعوه اليّ فشعرت في تلك اللحظة انني ازددت عشر سنوات

دفعه واحده ونظرت اليه فاذا به قد ازداد جمالا ، كان ، جمال الحياة
لا يكمل الا بالموت ،

لم أبك على من أحب حين مات . بل بكيت عليه حين رأيتهم
ينزلونه في قبر مظلم ضيق ، لاني بالحب وددت أن أرفعه الى السماء
فجاء الموت على الرغم مني وأنزله الى القبر ، فاذا جئت أعانته شعرت
انتي — « تراب يعاقب التراب » .



لماذا يطمع الله فينا ونحن أضعف مخلوقاته ؟

انه يسلبنا الذين نحبهم واحداً بعد الآخر ولا يترك لنا من آمال
الحياة سوى الأمل الوحيد وهو أن نرفع أنفسنا اليه ونصلي له
وتعزى بحبه .

لكن لا — ان لنا في تذكارات الماضي يارب مالا نبده
بكل نعيم المستقبل ووعوده .

هذه التذكارات التي تدفء برودة ارواحنا هي كل ما نحب ونملك .

بالتذكار أعزى وبالتذكار يعيش من احب في قاي

حينما كان على الأرض كنت معه يا الهي فكانت تذكاراته جزءاً
منك . والآن هو معك وقد ارتفع الى فوق فأصبح طاهراً شفافاً ،

والحياة كأمواج البحر لا يظهر جمالها الا اذا ارتفعت الى فوق

* * *

الشمس غابت وأشرقت في الصباح ، والنجوم خفيت ثم
لمعت في المساء

الأزهار التي ماتت في الشتاء عاشت في الربيع ، أما الذي أحبه
فقد مضى ولن يعود

لقد مات فلن أراه ، ولم يترك لي سوى ضريح مظلم ارتمي عليه
من الصباح الى المساء متأماً باكياً نائماً فاسمع الأرواح تستهزى بي
قائلة - « تراب يعانق التراب ،

* * *

الى ذلك الضريح ذهبت أعود من أحب

وقفت على باب تلك المغارة المظلمة المفتوحة كجرح عميق في
صدر الأرض وناديت من حشاشة الروح « يا قبر - اريد حبيبي »
ارجع الي من أحب

وإذا القبر يجيبني بأنة عميقة كأنها خارجة من غاب ككيف
لقد تعبت منكم أيها الناس كما تعبت مني ، أنا خادم الطبيعة ،
انا معمل تخريبها العظيم

أنا تسلمت من تحب يا فتى فقامت بالعمل الذي وجدت لأجله
أخذت اللعان من عينيه ، ورجعته الى النجوم اللامعة
البعيدة

قطفت الالبسة عن شفتيه ، ورجعتها الى أفواه الأطفال
استخرجت الحرارة من قلبه ، ورفعتها الى الشمس المشرقة الدافئة
امتصت نضارة الحياة من وجنتيه ، وسكبها في قلب
الطهارة الخالدة

شعره الناعم الطويل وضعته على اكتاف الليل الراكض مسرعاً
الى الأبدية

لون وجهه الشاحب مسحت به وجه القمر
حديثه العذب وضعته في أفواه العصافير التي تغرد كل صباح
أخلاقه الرضية ، وصفاته الطيبة وزعتها على محبيه لتبقى بينهم
تذكراً ابدياً لا ينسى

وهذه الحفنة الصغيرة من التراب التي كانت فيما مضى جسداً
من تحب هي وديعة عندي لأنها نصيب أمنا الأرض وسأرجعها
بأمانة اليها متى اكملت تحليلها الأخير

أما نفسه - نفس من تحب - فقد أعدتها الى الله فاذهب
اليه واسأل عنها

* * *

وبقلب مكسور لويت رأسي راجعاً من جانب القبر
اقتش عن أحب

سألت علماء اللاهوت - أين هو الله؟ فأجابوا - في كل مكان

وسالت علماء الطبيعة - فقالوا - ليس في مكان

وسالت فريقاً آخر - فأجاب - لا ندري

لذلك ساقش عن حبيبي الى أن أجده

وستظل حياتي معلقة فوق رأسي كسقف بالمتداع للخراب

الى أن امشي وراء من أحب

روحي - حياتي - اختي

الى صديقى

خليل بك مطران (١)

مشيت بجانبك أيها الصديق وأنت سائر امس وراء نعش
والدتك لتودعها مقرها الأخير .

التفت اليك فلم أجدك تبكي - بل أبصرت من غضون وجهك
تلك الابتسامة الحلوة ، الدائمة ، التي لاتفارق وجه
خليل مطران .

لكنتي شعرت بروحك الوثابة ، الحساسة ، المتألمة ، الدامية ،
الباكية تذرف دموعاً سخينة لا يسمع وقع عبراتها سوى الذين
يشعرون بعمق محبة الأبى للام

وقفت لحظة واحدة في وسط ذلك الجمع الخفير المحتشد وحنيت
رأسى باحترام أمام المرأة التي أعطت للعالم خليل مطران .

ذلك الانسان الذي ليس له عدو واحد بين بنى
الانسان .

(١) نشرت بجمريدة المقطم

ذلك الانسان الذى هو صديقٌ، وفى، أمينٌ، غيورٌ، مخلصٌ
لكل انسان

أيها الناس — ان وجود خليل مطران يبتنا يزيد ثقة الانسان
بأخيه الانسان .

قالف رحمة من الله على أم خليل مطران .

الى التى أمب ! (١)

أيتها الحاكمة بأمرها على دموع البشر فلا تسقط دمعة واحدة
الا باذن منها هل تصغين اليّ لا قول لك كيف أحبك !

* * *

أحبك بكل ما في نفسى من العلو الذى يستطيع أن يوجد الله
في النفس

أحبك بكل ما في روجي من العمق - العمق العميق الذى
يحيط به السكون الأبدي الصامت الذى لا نهاية له

أحبك بكل ما في قلبي من الحنو ، والخشوع ، والتعبد

أحبك بكل ما في دماغي من التفكير ، والتأملات ، والنشاط ، والأقدام

أحبك بكل ما في ضميري من الدين ، والأيمان ، والرجاء

أحبك بكل ما في في من الكلام واذني من الأصغاء

أحبك بكل ما في عيني من النور وذاتي من الخلود

(١) نشرت في مجلة المقتطف

أحبك بكل عاطفة بكر مخزونة في فؤادي
أحبك بكل أحزاني، وشقائي، وبؤسى، وتعاستي
أحبك بكل أنفاس، وابتسامات، ودموع الحياة
أشعر اني أحببتك قبل أن أولد، واني سأحبك الى ان أموت
وإذا لم تعاكسني الآلهة فسأحبك بعد الموت اكثر كثيراً مما
أحببتك في الحياة

* * *

أيتها الحاكمة بأمرها على دموع البشر فلا تسقط دمعة واحدة
الا بأذنها

هل تصغين اليّ لأقول لك كيف اذكرك

* * *

أتمنى لو أستطيع ان أنساك لحظة واحدة لكي اذكرك من جديد
وأتلذذ بتلك الذكرى —

أنت الحياة المتدفقة في قلبي

أنت النور المنبثق من عيني

أنت الخلود الذي أعد به روحي

أنت السعادة التي تحلم بها نفسى
أنت الحلم الذي يجول في فكري
أنت أغنية العمر ، وموسيقى الأيام
أنت كأس الماء ، ورغيف العيش
أنت أجمل شيء في الدنيا ، لأنك امرأة جميلة
جمالك لذة أبدية لا تفتى
أنت أنت ، وكما انت اذكرك انا

* * *

أيتها الحاكمة بأمرها على دموع البشر فلا تسقط دمعة واحدة الا
بإذن منها

هل تصغين الي لأقول لك كيف أراك

* * *

أنا ابصرك آتية في موكب الفجر الصامت
أنا اراك على أجنحة الهواء الذي يهب في الصباح
أنا أراك واقفة على أشعة الشمس حين شروقها

وأراك مضطجعة على خيوط المغيب عند المساء .
أنا أشم انفاسك حين يحرك النسيم أوراق الورد والياسمين .
أنا اشعر بوجودك حين ترقص عرائس النيل والمروج
أنا اسمع صوتك مع خريز الماء الراكض مسرعاً ينشد في
الفضاء أنغاماً

أنا اعرف انك في قلب الزهرة حين يفوح عطرها



أنا — اما أنا يا ذات كل شيء — أتعرفين من أنا

أنا جزء يكمل بك

فان كان لديك كلمة « حب » فاهمسي بها الآن الى قلبي

وان كانت كلمة « غضب » فبالله — فبالله اتركها الى الغد —

الى الغد الذي لن يأتي

بافتة من ورد (١)

اقدم لك باقة من الورد يفوح اريج رائحتها العطرية
الزكية

ان كل وردة منها اشبه بعذراء لم تفتح اكمامها بعد الى النور
والحياة والحب

ان عطرها سيمتزج بأنفاسك فيشعر الورد بلذة في حياته،
وبمعنى لوجوده

لكن لماذا وجد الورد!

الورد خلق ليقدم لك رائحته وعطره، ثم يذبل
ويموت

(١) الى مدام (J. C.) كتبت أولا في اللغة الانكليزية

ر ا س م (١)

سكون - سكون !

الوقت منتصف الليل ، وأجنحة ملاك النوم تخفق فوق
المدينة الجميلة

النوم ما هو النوم - وكأني منذ جيل كامل لم أنم - ومن
ينام في هذه الأيام غير الأطفال والعملة الذين يحفرون التراب ، اما
نحن ، نحن الذين نحلم ، وتنخيل ، فاننا لا ننام أبداً وفي الساعات
القليلة التي تمر بين منتصف الليل وانبثاق الفجر نستلقي في أسرتنا على
سبيل العادة - لا لننام بل لتنخيل ونحلم

دعني أتأمل أين أنا الآن؟

هذا هو شارع عماد الدين ، لقد اجتزته الى شارع فؤاد
وأنا الآن أمام تمثال ابراهيم باشا ، لقد انتهى التمثيل
في الاوبرا الملكية وأرى الناس يخرجون أفواجاً. هذا
مصطفى باشا وهذا حسن بك وهذا نسيمي احسان يدخل
سيدة أجنبية الى سيارته ويجلس معها ، وهذا استاذي القاضي في

المحكمة المختلطة وصديق والدي القديم . وهذا رشدي باشا أيضاً ،
أنا أعرف جميع هؤلاء وهم يعرفوني أيضاً ، لكن لو تقدمت
اليهم الآن وقلت اني أنا راسم بك خالد ابن أحمد باشا خالد
الشهير... ، يالها من رواية مضحكة : اني لن أجد بينهم من
يصدقني - لا بل قد يضربني نسبي احسان بعصاه ويصيح بي -
اسكت يا حشاش - راسم رحمه الله مات منذ زمن
طويل .

- لا أنكر انني حشاش لكنني راسم خالد أيضا . من يصدق
ذلك وراسم اختني منذ عشر سنين ومات والده حيرة عليه -
لكن ماهذه الذكريات المؤلمة وما الداعي الى اعاتها الآن ؟
كنت أتمشى أمس أمام فندق شبرد ،

مررت أمام بائع الكتب فابصرت كتابي الذي ألفته منذ
خمس عشر سنة يباع بعشرة غروش . تمنيت لو كان معي هذا المبلغ
فاشتريه وأقرأه لارى كيف كنت أفكر في ذلك الزمن - هذا فصل
مضحك آخر - راسم الحشاش كان بالأمس كاتباً ومؤلفاً ! أيتها
الأقدار - حتى م تهزئين بالبشرية وتمثلين أدوارك الغريبة في أبنائها
التاعسين ؟ نعم ! كنت مؤلفاً وشاعراً ومحامياً ووارثاً لآلوف الأفدنة
من أجود الأطيان في مصر .

أما الآن فأنا رجل فقير معدم حافي القدمين تسترني جلالية
زرقة قدرة .

لقد غارت عيناى ، وبرزت خدودى ، ونحل وجهى ، وطال
شعر ذقنى ، ورأسى ، الى حد غريب .

أقضى نهاري مستلقياً على ظهري في غرفة ضيقة ، مظلمة ، قدرة ، في
الطبة العليا من منزل قديم بجوار الأزهر الشريف - حتى اذا أرخى
الليل سدوله ، خرجت أطوف شوارع مصر . وأنا ذاهل الفكر
مشرد الذهن ، أسعى في غير مسعى .

كنت أنفق الأموال على الفضيلة وعمل البر والاحسان ، أما
الآن فقد أقدم على جريمة في سبيل الحصول على خمسة غروش .
اعطني خمسة غروش افعل ماتريد - أسرق وأنهب
وأقتل ، لاضم كنى على تلك القطعة الفضية لاني أستطيع
أن أشترى بها ذلك المسحوق الأبيض الذي يحول فقري
الى ثروة ، وشقائى الى سعادة ، وجلاليتى القذرة الى دمقس وحرير ،
وغرفتي المظلمة الى عرش في قصر . ذلك المسحوق الذى يجعلني
جفاة ملكاً عظيماً بدلا من فقير يائس معدم . كم مرة وقد أرخيت
العنان للذتي وتخيلاى ، أمرت الماريشال ادمند هنري هنمن اللنبى
أن يخضع لي ، نخر الى الأرض صاغراً مستغفراً ! كم مرة أمرت
جيش الاحتلال بالخروج من مصر فخرج بقضه وقضيضه ! لكن
هؤلاء الانكليز أصحاب مكر ودهاء ، انهم يخرجون في الليل فاذا
جاء النهار يعودون .

أنا سأخرج الانكليز من مصر -

كن شاهداً على كلامي يا شباب مصر الناهض — اشهدوا على ما أقول يا اخواني الكثيري العدد، المنتشرين في كل زاوية ومكان من هذه المدينة التاريخية الجميلة — ساعدوني على ذلك، تعالوا لتتناول في وقت واحد نشقة من ذلك المسحوق الساحر، ونأمر الانكليز بالخروج فيخرجون .

لكن لا — اني لا أقوى الليلة على اخراجهم —

ها أنا أشعر كاني أعود الى صوابي ورشدي . لقد أثر في مظهر الهدوء والكمال والتعقل الذي شاهدته في انسابي واصدقائي الأقدمين في أثناء خروجهم من الأوبرا الملكية . هذه هي المرة الأولى التي أعود بها الى تعقلي ورزاتي فاستطيع أن أفكر . منذ خمس سنين لم أفكر قط ، وها أنا الآن أذرف دمعاً حارة على نفسي وعلى مصر — مصر ، مصر — هل تعرفين من هم أبناؤك الساكنون في جوانبك المتطللون بظلالك؟ هل ترتعش مصر خيبة وحرزناً اذا بحث لها بالحقيقة المرة عن أبنائها الكثيرين أمثالي؟ أليس من الواجب أن تسمع مصر حقيقة الأمر يجهر بها قتي من أبنائها .

أيها المصريون — أنا واحد من الألوف أمثالي في مصر . أنا واحد من ألوف من أبنائك الذين لا يأكلون ، ولا ينامون ، لكنهم يعيشون على استنشاق ذلك المسحوق الأبيض علة خراب مصر ودائها العضال .

أنا واحد من ألوف الضحايا ،

أنا ابن من أبنائكم أيها الآباء -

أنا كنت أسير في الشوارع أيام الحركة القومية وأهتف بين عدد
عديد من أخواني « لتحي مصر ، « ليحي الاستقلال ، - ان العدو
على الأبواب - وليس العدو انكثرا ولا أوربا - ليس العدو
فيالق الجنود، ولا بوارج الأساطيل، واسراب الطيارات . ان العدو
هو ذلك المسحوق الناعم ، .. بلى . خير لمصر أن تفتح عينها لترى
الهلاك الذي يحيق بها . لو اقتصر ذلك الخطر على طبقة الأفسدية
والمتعلمين لمان أمره قليلا - لكن خطر الداء نفشى واستفحل ،
انتشر في سواد الأمة ؛ انتقل بالعدوى من المتعلمين الى الفلاحين ؛
وحياة مصر فلاحها .

قد تفضل طبقة المتعلمين وتسقط فينهض بدلا منها طبقة أخرى
من أبناء الأمة تحترف العلم وتضع يدها على محراث الأدب ، وتسير
بالشعب الى غايات العمران الرفيعة . لكن اذا فسد الفلاح أيضاً فن
يصلح مصر - اذا فسد كيان الأمة - اذا تسلط ذلك السم على
فلاحها فقل على مصر السلام ،



يبتديء تاريخ حياتي بالحب

وهكذا يبتديء تاريخ حياة كل رجل وامرأة لو كان لهم الشجاعة
ليعترفوا بذلك

كان والدي غنياً جداً . ورث غناه عن والده الذي شغل منصباً
رفيعاً في زمن اسمعيل
وكنت أنا وحيد

لم ييخل علي بالتعليم العالي فارسلني الى أوروبا ، ولما رجعت كان لي
شأن في الحركة القومية على أيام مصطفى كامل
كنت شديد الميل الى الاصلاح الداخلي، فانشأت سلسلة مقالات
نشرتها في جريدة المؤيد

وقد كنت أجد الشعر ، وأرغب في الأدب ، ويطيب لي حديث
أهل العلم والفضل . ولي في مكاتب القاهرة غير مؤلف واحد في
مباحث شتى

لقد ترجمت . وكتبت ، وألفت ، قبل أن استسلمت الى هذه التخيلات
الفاصلة التي قادتني الى هذه الهوة السحيقة . لأعلم كيف عاودني
شعوري الآن فندكرت كل هذه الأمور التي نسيها منذ
زمن طويل

أنا أكره أن اتذكر من أنا

أيتها الأفكار القديمة المنسدة - لماذا تهاجميني بهذه الشدة .
منذ خمس عشر سنة وأنا تائه الفكر لأريد أن أتذكر وها انا
الآن اشعر ان التذكارات القديمة تندفع علي كنه جارف فاضطر
الى الذكري . أود أن أتذكر شيئاً من الماضي قبل أن أتناول هذه
التشيقه ، الأخيرة التي تحملني على أجنحة اللذة والسعادة والحب

الى عالم لا ذكرى فيه ، ولا ألم ، ولا معرفة ، ولا أصحاب ، ولا أهل ،
ولا أسرة .

ان جميع اعصابي تتحرك الآن هاتفة تواقه اليها
ان دمي يغلي كبركان من نار مندفعاً وراء تلك اللذة
ان رغبتى . وارادتي . وروحي تطير اليها
فيها أعيش ، ولأجها أموت . ابعده عني الكوكابين أمت ،
امنعه عني اتحر

هل للحياة معنى بدون ذلك الساحر الابيض - ان هي الا أيام
طويلة باردة عملة لا لذة فيها ولا جاذب
قلت اني احببت

- واقول الآن اني بنيت على ذلك الحب اساس آمالي ،
ومستقبل سعادتني

احببت فتاة انزلتها منزلة الحياة من قلبي .

كنت اشعر ان روحي تنسكب في روحها ، وحياتي تندفق من حياتها
لم ابخل عليها بكل ما يملكه قلبي . لكنها كانت اجنية ، وكنت مصرياً
وقد صدق كبلنغ حينما قال : الشرق شرق والغرب غرب .
لوسكبت حي عند اقدم مصرية لعبدتني .

لو احببت فتاة من بنات قومي لعرف فضلي ! وقدر
حي قدره .

لكنني نزعته الى مختلف من الأخلاق والمشارب والعادات .
والزواج من فتاة لا تربطك بها ألوف السنين من التقاليد
والأمزجة ، هو زواج خطر في أكثر الأحيان .

وكنت أحب خطيبتي — عفوك أيها القاريء — بل كنت
أعبدها وعبادة المحبوب قديمة جدا في الناس .

وكنت موظفاً في وزارة الأوقاف ، والوظيفة في الحكومة هي
غاية ما يطمع اليه الشاب المصري . وكنت اذا انتهى عملي أقصد
الى خطيبتي اجلس اليها ، واحدها ، واتزده معها . وقضينا كذلك رداً
من الزمن يلازمنا صفو العيش ، وهناء الحب .

ذهبت ازورها في احد الايام فامتنتع عن مقابلتي بدعوى انها
مريضة ، رجعت من حيث أتيت وارسلت اليها رسالة حب وبقاوة ورد
ولم اشاهدها طول ذلك الأسبوع لأنها — على ما علمت بعد ذلك —
كانت تنتحل المرض .

واجتمعنا اخيراً ، فكانت نظراتها قاسية باردة خالية من لمعان
الحب الذي تعودت ان اشاهده فيها . لم تكن مريضة لكن عذاباً
داخلياً كان يفري مهجتها .

فقلت متأثراً : مرغريت ! ما الذي يخامرک ؟

بكت دون ان تتكلم .

وكانت عبراتها تسحدر بهدو على وجنتها وهي تنظر وجلة

في الفضاء ، فاخذت يدها بيدي لأقبلها ، فامتعت وتراجعت
الى الوراء وقالت لي :

اصفح عني . اغفر لي . ولكن يجب ان تعرف الحقيقة يا راسم .
لقد خدعتك حين اقسمت لك اني احبك — انني لم احبك قط —
لقد احببت شخصاً سواك تملك فؤادي ، وسد علي منافذ قلبي ، وسلط
علي من غرامه قوة استعبدتني ، وقد حاولت كثيراً ان احارب هذه
القوة — جاهدت لأفلت من نظراته القوية الساحرة ، ولما اخفقت في
ذلك جئت اليك معتمدة على شهامتك ، ونبلك ، في ان تغفر لي ، وتغفو عني
وتتركني حرة لاتزوج الرجل الوحيد الذي احبه — انا اشعر معك
واتالم لك ، لكنني ... لكنني لا احبك . لقد خدعتك تلك سنوات
فاصفح عني . وقد غدرت بك فتجاوز عن شري وقسوتي

تصور ايها القاريء ما تشاء —

لك ان ترى الامر بسيطاً جداً ، وان تتخيل راسم بك خالد
ينهض بكبرياء وألم فيودع خطيبته ويفارقها ويمضي . لكن اذا
كنت قد ذقت طعم الحب ، اذا كنت عرفت اثر الروح في
الروح . او هيام القلب بالقلب ، حينئذ قد تتصور ما تعذر
له نفساً تملكها سلطان الحب القهار

وكانت مرغريت تتكلم وانا جالس اصعد الزفرات ، واذرف
الدموع — شعرت في تلك اللحظة كأن ريحاً عاصفة هوجاء ، تهب على
شجرة الآمال التي غرستها بيدي ، وتعهدتها بدمي ، وعواطفي ، ودموعي

فتقتلها من جذورها وتثرها في قفر بلقع ، لا امل ولا طمع لي
بالوصول اليها —

ولماذا يعيش الانسان ان لم يكن له امل يعيش لأجله

كنت ابكي — وكانت مرغريت تبكي ايضاً وتردد بقساوة وألم
انها لا تحبني وانها تريد قطع كل ما ارتبطنا به من العهود وهي لا تدري
ما لكلامها من الأثر والوقع في نفسي —

بلا جدوى جادتها وحاولت تغيير افكارها —

ايتها السماء — ماهو نوع الحب الذي انزلته على دماغ المرأة ؟

ايتها الآلهة — لكن اين هي الآلهة — انها لا تسمع بني البشر
وإذا سمعت فلا تستجيب .

فارقت مرغريت على أن اعطيها الجواب الاخير في نهاية اسبوع
خرجت من دارها في الجزيرة أتمشى على ضفاف النيل — وقد
عزمت ان اشفق على عواطف هذه الفتاة التي احببتها وعبدتها ،
عزمت ان اقطع كل علاقة لي بها واتركها حرة لتزوج من تشاء .
وطدت النفس على مساعدتها بكل نبل وشهامة حتى اذا احتاجت الى
المال لكي تسافر مع من تحب لما امتعت عن تقديمه بكل سخاء
وحبة — تذكر ايها القاريء — كنت عزما قاطعاً على
الاحسان اليها ، والرفق بها ، رغم انها خدعتني ثلث سنوات متوالية .
وكانت آلام اليأس ، والشقاء ، والفكر قد اتعبتني واضنتني ، فجلست

على مقعد صغير بجانب « كبري ، قصر النيل وأنا منهوك القوى ، خائر العزم ، وكان الليل قد أرخى سدوله والقمر يتلألأ في السماء كأنه بين الكواكب مليكها ، فاستسلمت للنعاس ولم افق الا ويد على كتفي وصوت رنان يقول لي :

راسم بك — يا دنيا — مالي أراك محتفياً في زاوية صغيرة من هذه المدينة الجميلة — أنت يا صديقي — أنت في غناك الواسع المفرط ومنصبك الرفيع ، وجاهلك الطويل العريض — أنت — أنت تلجأ الى النوم كالفقراء أمثالي على المقاعد العمومية في زاوية منفردة بينما سلامه حجازى بصوته الرخيم المطرب يملأ المدينة هناء وسروراً — وتوحيدة تنشد ، فتطأطأ لها الرؤوس لذة وطرباً

التفت لأرى صاحب الصوت فعرفته — حسن حسني — ومن لا يعرف حسن حسني في مصر . كان والده حاكماً من اكبر حكام الأقاليم في القطر المصري بمصر ، أما امه فهي ابنة ضيا باشا العالم التركي والسياسي العظيم الخطير . لكن حسني هذا لم يرث من والديه سوى المال فبذره ، ولم يبق له سوى مورد ضئيل ، من وقف قديم لأحد جدوده — وقد كنت أشفق عليه وأحسن اليه

دهش حسن حسني لسكوتي لجلس قربي وقال بصوت خافت ؟
ما الذي جرى يا راسم ؟ هل ضاربت في البورصة ؟ هل أضعت مالا ؟ هل نقلوك من مصر وأبعدوك عن خطيبتك الفتاة ؟ هل أنت مريض وهل تشكو الماء ؟

لا هذا ولا ذاك . لم أخسر مالا ، ولا أنا مريض — انما انا بائس
ناعس ، فاتركني يا حسني

واذا به قد وقف وصاح صيحة ابتهاج كمن تذكر شيئاً هاماً
عندي لكل داء دواء — دواء للبقامرين الذين خسروا الاموال
والثروات ، دواء للرضى والمتألمين ، دواء للكتاب والشعراء المفلسين
دواء للبعثرين البائسين الذين خانهم حبيب عبوده — عندي لكل
داء دواء

وأخرج حسن حسني علبة صغيرة من جيبه ، وأخرج منها قليلاً
على ابهامه ، ثم أدناها من أنفه واستنشقه بلذة واطمئنان ، وارجع رأسه
الى الوراء ، ثم هزه هزاً عنيفاً ، وغنى بصوت يجمع بين الجذ والهزء
والله يا حكومة — أنت الملوثة — الملوثة — الملوثة — آه
يا حكومة

قلقت ضاحكاً : ما هذا يا حسني ؟

هذا حياة مصر — أجب حسني — هذا اكسير شبابها ، هذا
فلسفتها ، وشعرها ، وغناها ، هذا مدنتها الجديدة ، هذا نيلها الذي يجري
في الأعصاب والشرابين ، وجميع تلافيف الدماغ . ثم دنا الي ويده
علبته الصغيرة وقال :

خذ هذا واطرح عنك هموم الثروة ، والأدب ، والجاه ، والعظمة
الفارغة ، والحب الكاذب — خذ أيها الصديق . استنشق هذا الدواء

يزل عنك ألم الفكر، واليأس، والحب، : هذا الدواء ينقلك من عالم الكذب، والرياء، والنفاق. الى عالم الأرواح، والخيالات، والتصورات واللذات. فأطعته كأني آلة تتحرك واستنشقت ما قدمه لي.

ثم تحادثنا قليلا، ثم استنشقتنا ايضاً — « تنشيقه » اثر « تنشيقه » الى أن نفذ ما معه فقال :

لقد بددت جميع ما املكه من هذا « المكيف » العجيب، ليغفر لك الله، أما انا ...

فقلت — ألا تستطيع ان تشتريه يا حسني ؟

— أستطيع اذا وجدت المال .

اخرجت قطعة ذهبية من جيبى عليها رأس نبوليون ودفعتها اليه فهتف من الفرح

— سأشتري برميلا كاملا ، سأملك ما يكفيني أسبوعاً .

وركض حسن حسني الى زاوية الشارع ثم عاد ضاحكا يقول :

لقد ارسلت الخفير لشرائه لي وسيعود بحمل جمل منه . لكن

وأسفاه ، ان قطعتك الذهبية لا تشتري من هذا الا كبير

الصحري سوى علبة صغيرة مثل هذه . ثم عاد الخفير فطار حسن

حسني لاستقباله، وعاد الي وهو يقبل العلبة من الفرح والسرور.

« تنشيقه » اثر أخرى الى ان خامرني الذهول وسقط حسني

بجانبي لايعي، وكان الليل قد اتصف فناديت حوذاً فسار بي الى

البيت فدخلت غرقتي لا لأنام — بل لأحلم .
انني منذ تلك الليلة لم اعرف النوم .



دخلت غرقتي لأنام — امتلاءً دماغني بالتخيلات والتصورات
فرايت مرغريت جالسة بجانبني تقبلني — ثم رأيتها غاضبة تحديق بي
وتقول انها لا تحبني ، وتحب سواي . نهضت من فراشي منذعراً
كالمجنون . وضعت اصابعي حول عنقها الناعم الجميل ، وضغطت
عليه الى ان سقطت على الأرض جثة هامدة . أخذتها ثانية بين يدي
وأمرتها ان تعود الى الحياة ففعلت . كنت اضحك ضحكا عالياً
واقول لها خير لك ان تموتي قبل ان تحبني سواي .

ورأيت نفسي في وزارة الأوقاف ايضاً . وتصورت انني عضو
في الوزارة الجديدة اجادل اللورد كرومر في امور تختص بالاصلاح
وبقيت كذلك الى ان دخل والدي في الصباح وقد استبطأ نهوضي
كالعادة — اي حنان في نظرات ذلك الوالد المحب واي لطف في
توبيخه القارس ! اما انا فصححت بوالدي قائلاً — اخرج يا احمد .

عبأً حاول ان يكلمني أو أن يفهم شيئاً من امري فخرج .
ونهضت قبل منتصف النهار فلم أذهب الى عملي في الوزارة ، بل
انصرفت ابحت عن حسن حسني لكي يشتري لي اكسيراً كالذي
تعاطيناه امس فلم اجده قبل المساء فذهبنا الى مكان مفرد على ضفاف

الليل وجلسنا نتشوق ونتحدث وسعى والدي ليحدثني فكنت افر
من وجهه ، وارفض الكلام معه

وكان موعد الاسبوع الذي ضربته لمرغريت قد انتهى . وفي
خلال هذه المدة كان دماغي قد امتلأً بشياطين الكوكابين
لاني كنت قد تدربت اسبوعاً كاملاً تحت يدي حسن حسنى
واصبحت كالألوف من امثاله الفتيان — عبداً للكوكابين



قلت لحسن حسنى وقد جلسنا ذات مساء على العشب الأخضر
في مكان منفرد من الجزيرة — أترى ذلك البيت الكبير ، خذ هذه
البطاقة اليه وأطلب مقابلة المدموازال مرغريت وسلها اليها يداً
يد وانتظر الجواب وكنت قد كتبت فيها ما يأتني :

مرغريت — أريد أن أراك لأودعك الوداع الأخير وأقولك
كلتي النهائية . تعالي مع حامل جوابي الى حيث أمانى انتظارك .

راسم

وعاد حسنى بعد قليل وراهه مرغريت وهي بثوب ناصع
البياض من الحرير الشفاف ، ولها جمال فتان يسبي العقول
والقلوب — لم تعرفني حين رأني لأول وهلة ثم صاحت مندهشة
منذرة خائفة .

نعم ، قلت متألماً . هذا ما فعله حبك بي . انه سيقودني الى الخراب
الى الدمار ، الى الموت .

بكت بصوت عال ، فكادت أشفق عليها وأشير عليها بأن تعود ،
لكن شعرت أن جميع شياطين الكوكابين تصيح بي صارخة
الى الموت .

أخذتها بيدها ، فتبعتني كالطفل ، وأشرت الى حسني ان ينتظر ريثما
اعود . مشينا على ضفاف النيل الى المكان السري الذي كنت
اجتمع فيه بحسني - فقالت .

الى أين تذهب بي يا راسم ؟

وددت لو أستطيع أن أبكي - لكن دموعي تجرت ، فلم أجد
للبياء سيلاً - وددت لو أعيد . رغريت الى أهلها ، وأعفو عن إساءتها
لي - لكن شياطين الحشيش صاحت بصوت كالرعد القاصف -
الى الموت - الى الموت - وأنا أصبحت عبداً لهذه الشياطين .

ركمت على الأرض ، وأمرت مرغريت أن تجلس أمامي
ففعلت - هل صممت على تركي يا مرغريت - هل عزمت
عزماً قاطعاً على الزواج بغيري ؟

اغفري يا راسم - اشفق علي - ان للحب سلطاناً هائلاً على
القلوب ، وأنا قد أحببته فلا أسعد مع سواه - أفضل الموت . . أفضل
الشقاء معه ، على الثروة والجاه مع سواه .

إذا نسيت اني أيضاً أحبك وانتي أفضل الموت ، والشقاء، والعار
على أن أعيش مع سواك ، أو أن اراك زوجة لغيري — الى
الموت اذاً

سم ألقيت نفسي عليها وقبضت على عنقها الجميل ، فحاولت أن
تصيح وتستغيث ولكن على غير جدوى ، تشنجت تشنجاً مخيفاً
ونظرت الي نظرات التضرع والاستعطاف ، أما أنا فلم تحركني
تلك النظرات ، ولم أشفق ولم أرحم .

ضغطت بعنف متزايد — وكانت مرغريت تجاهد بكل قوتها
تحاول الأفلات ، فقد كانت صغيرة تحب الحياة وتكره أن تموت —
لكن انى لها ان تفلت من يدي مجنون ؟

اشتدت بي القسوة عليها ، وتمكنت أصابعي من عنقها
فضربت الأرض برجلها ، ووضعت أصابعها في وجهي ، وعيني
لتتخلص من قبضتي .

ونظرت اليها للمرة الأخيرة فرأيتها جميلة ساحرة ، فكدت أشفق
عليها وأتركها — لكن — لكن شياطين الحشيش والكوكايين
كانت تصيح بي — اقض عليها — اقض عليها .

ولم تكن الاهنية حتى قضي الأمر .

رفعت يدي فسقطت مرغريت على الأرض جثة بلا حراك .
لم ادرك ما فعلت ولم أصدق أنها ماتت ، فانحنيت عليها أهرها وأطلب

اليها في حنو واستعطاف ، ان تهض وتكلمني فاعفو عنها — كذت
أبكي ! وأنادي مرغريت ! مرغريت ! أنا لم أقتلك ، انهضي ، افتحي
عينيك ، كليني ، اني احبك ، اني أعبدك ، مرغريت ، مرغريت ،
لا تموتي ، انهضي .

وكان صدى صوتي يعود الي شجيا مخيفا .



واستطال حسن حسني الانتظار فجاء يبحث عني فأبصر الجثة
ورآني را كعماً أمامها ابكي .

فقال — ما هذا ؟

فضحكت قائلاً — لا ادري لماذا ماتت ! لقد وضعت اصابعي
حول عنقها وضغطت قليلا فسقطت على الارض بلا حراك كما
ترى . فصاح حسني — ايها المجرم القاتل السفاك ، لقد خنقتها وستنام
هذه الليلة في القسم ، وسيقودونك غدا الى المشنقة

وقفت منفعلا وقلت — ان نفسي تتوق الى المشنقة يا حسني ، وخير لي
ان اموت ، لقد اصبحت حياتي تافهة لا معنى لها ، اقسم لك اني قتلتها
وانا لا ادري — انت ، اكسيرك الأبيض الناعم هو الذي قتلها

إذا أنا المجرم القاتل ! وأنا الذي سأذهب الى القسم والمشنقة !

وبلاه — من ارسلك الي ياراسم ؟ تعال نخني الجثة الى منتصف الليل
ثم نرميها في النيل . خذ تنشيقه فتنشط وتستيقظ .

وفي منتصف الليل حملنا مرغريت بين يدينا ورمينا جثتها في مياه
النهر المقدس الخالد .

التفت للمرة الأخيرة فابصرتها طافية على وجه الماء، وشعرها
الطويل يتموج على طيات المياه والأمواج .

مرغريت ! مرغريت — صحت با كياً متأماً — لقد كنت
سبب جنوني وخرابي... وارتج علي فاجهشت بالبكاء وسقطت
الى الأرض .

وتقدم حسن حسني وهو يرتجف من الخوف وصاح بي .

أيها المجنون — لقد قتلها وجئت تبكي — تعال نهرب الى حيث
لايرانا أحد . ان لي غرفة عالية منفردة في جوار سيدنا الحسين فتعال
نسكن هناك . الا تعلم أن سر الجريمة يفضح غداً فيفتشون
عليك في كل مكان ؟

وتناولنا تنشيقه أخرى ثم سرنا في ظلام الليل الى حيث
يسكن حسن حسني .

كانت غرفته ضيقة قدرة، لكنها مناسبة جداً للتحشيش، فاخفيت
فيها عن العيون والارصاد، وبقيت سنتين كاملتين لا اجرؤ أن أخرج

بعيداً ، خشية أن يصادفني أحد يعرفني — وكان شعر رأسي ووجهي
قد نمت ، واستطال ، وتغيرت هيئتي فأصبح من المستحيل أن يعرفني
حتى أقرب الناس الي .

وكان حسني يخدمني كل هذه المدة ويحضر لي جميع ما احتاج
اليه — وهل كنت أحتاج الى شيء سوى بعض الخبز وجرعات
متوالية من الكوكايين ؟

وبعد سنتين مات حسني متأثراً من السكر والكوكايين —
مات وتركني وحدي أطوف شوارع القاهرة ليلاً ، فإذا جاء النهار
عمدت الى مجبأي وبيتي . ونسي الناس أمر الفتاة التي وجدت غريقة
في النيل ونسي الناس راسم بك خالد ، وحسبوه في عداد الأموات

نعم مات راسم — مات في نظر الفضيلة والشرف — مات في
نظر أهله ، ومعارفه ، وأصدقائه — لكنه لا يزال حياً في نظر الكوكايين ،
والحشيش ، يطوف شوارع القاهرة على غير هدى ، فإذا عاد الى
غرفته استلقى في سريره على سبيل العادة ، لالينام ، بل ليتخيل ويحلم .

بجاءة نمر (١)

تبعني في شارع عماد الدين ، ومشت ورأني الى شارع بولاق
فتاة صغيرة حقيرة ، ذات ثياب رثة ، لكنها تتحلى بتلك السمرة
المصرية العذبة ، وعيناها السوداوان الواسعتان تتحركان بتعب
كاجنحة الطائر .

مدت يدها قائلة : —

ربنا يكرم عليك اكرم علي

* * *

لم تيأس — بل تبعني والألفاظ السريعة النغشة تتساقط من
من بين شفتيها ، كان لسانها يدار بمحرك كهربائي .

بجاء النبي — لوجه الله — ربنا يحميك من أولاد الحرام
ربنا يفتح عليك . والنبي ما فطرت ياباشا ، قرش حسنه لوجه الله

(١) نشرت في اللطائف المصورة

يايه . شرف النبي، تعطيني قرش . بعرض النبي أنا جائعة



لم التفت اليها

ومن يلتفت الى فقير في هذه الأيام ؟

أما هي فتابعت سيرها ورأى كأنها شعرت أنه من الظلم أن
تذهب كل هذه التمنيات والطلبات في الهواء .

أسرعت في سيري . وأسرعت را كضه في رجائها والكلمات
تجري على شفيتها بسرعة فائقة التصور
وقفت أخيراً

انقطع خيط أملها ، وخاب رجاؤها ، لأنها التمت شيئاً
واملت به فلم تنله .

استنجدت بالسماء — واستحافنتني بجميع الآلهة والأنبياء
الذين تعرفهم ، فطاش سهمها

هل على الأرض أو في السماء ، من تحركني نعمات اسمه
فتستجد به تلك الطفلة الجائعة .

لقد كانت كلماتها ناعمة خلافة ، وصوتها رخيماً عذباً . ولكن
قلبي كان قاسياً وشعوري محجراً فلم أشفق ولم أرحم .

لوت رأسها تريد أن تعود غائبة مخذولة ، وقد فرغت
جعبة توسلاتها .

انتشر الياس على وجهها ، وتقلص النور العميق في عينيها .

* * *

لكن لجة - لجة عادت الحياة الى وجهها ، وأشرق على
جبينها نور جديد .

لمعت عيناها وتوسعت بشعاع فكرة صائبة أشرقت في دماغها
ركضت ورأني مسرعة الى أن وصلت الي ، لمست أطراف
أصابعي كأنها تستوقفني .

التفت لها

في حركاتها اعتقاد متين . وفي نظراتها قوة جديدة كأنها صاحبة
حق جاءت تطالب به

رفعت أنظارها الي وقالت بلهجة الفائز المتصر ، لا بانين الجائع
المستعطي

« بحياة تعد »

* * *

سألته قائلاً « من هو سعد يا بنت » ؟

تطاول وجهها . ورفعت حاجبيها ، وشهقت بصوتها ، مستغربة
مدهوشة

ألا تعرف تعد ؟

وبلاغة العامة وذكأهم قالت لي

— « تعد . تعد ، — وكأنها تريد أن تقول « سعد هو سعد ،

* * *

تأثرت من أعماق نفسي ، ومن لا يتأثر أمام هذا المشهد العذب
ان تلك الكلمات من فم تلك الفتاة الفقيرة ، الجائعة ، المتسولة
لهي في نظري ، اسمي ، وابهي ، واحلى ، وأكمل ، واجمل ، واجمع ،
وابدع ، من كل ما يصيح به الناس قائلين

لا رئيس الا سعدا

كيف خلق الله المرأة

جاء في الاساطير القديمة حديث ، بديع ، جميل ، عن كيف خلق
الله المرأة

وهذا الحديث يفوق ببلاغته ، ومعانيه ، قصة الخليقة حسب
نصوص التوراة

✧ ✧

في البدء خلق الله العالم والسموات ، والارض ، وما فيها ، وما
عليها ، ثم خلق الرجل

ولما جاء ليصنع المرأة وجد انه قد استنفد في صنع العالم والرجل
جميع المواد والعناصر التي كانت لديه

فغزن الخالق ووقع في سبات عميق

ولما استفاق عمد الى هذا العالم واستخلص منه المرأة كما يأتي

✧ ✧

اخذ من القمر ، استدارته

ومن البحر ، عمقه
ومن الامواج ، مداها وجزرها
ومن النجوم ، لمعاتها
ومن شعاع الشمس ، حرارته
ومن الندى ، قطراته
ومن الريح ، تقلباتها ، وعدم ثباتها
ومن النبات ، ارتجافه وارتعاشه
ومن الورد ، لونه وعطره
ومن الازهار ، مخملها
ومن الاوراق ، خفتها
ومن الاغصان ، تمايلها
ومن حفيف الاشجار ، حنينها وانينها
ومن النسيم ، لطفه ورقته
ومن الراح ، نشوته
ومن العسل ، طعمه وشهده

ومن الذهب ، شعاعه
ومن الماس ، قساوته
ومن الحية ، حكمتها
ومن الحرباء ، تلونها
ومن الغزال ، شروده
ومن المهى ، عيونها
ومن الأرنب ، خجله وحياءه
ومن الطاووس ، خيلاءه وزهوه
ومن الأسد ، شراسته وقوته
ومن الزمن ، خيالاته وغدره
ومن الثعلب ، مكره وروغانه
ومن العقرب ، لذعته
ومن اليمامة ، نغمتها
ومن البيغاء ، هذيانها ، وكثرة كلامها
ثم جمع جميع هذه المواد وسكبها في بوتقة وصنع منها المرأة

وأخذ الله المرأة ، واعطاها للرجل

° ° °

وبعد اسبوع جاء الرجل الى الخالق قائلاً :

يارب — ان المرأة التي اعطيتني قد سممت حياتي ، ووجودي

انها تكلم بلا انقطاع

انها تبكي بلا سبب

انها مستضعفة نحيفة ، ومطالبها لا حد لها

انها تشكو من اقل شئ.

وتتألم من كل شئ.

خذها وارحني منها يارب

° ° °

واخذ الاله المرأة

° ° °

وبعد اسبوع عاد الرجل الى الخالق قائلاً :

يارب — ان حياتي بدون المرأة اشبه بالوحدة والانفراد

كل العالم الذي اعطيتني اشبه بمنفى لي

انا تاعس بدون المرأة

اني اتذكر كيف كانت تغني لي ، وترقص امامي

كيف كانت تنظر الي بانعطاف من طرف مقلتها

كيف كانت تبسم فتجدد نشاطي ، وتضحك فتبدد همومي

كيف كانت تداعبني

كيف كانت ترتمي بين ذراعي

كيف كانت تحب اليّ الحياة

كيف كانت تخفف آلامي ، وتعطي لذة لاحلامي

ارجعها الي يارب

* * *

واعاد الله المرأة الى الرجل

* * *

وبعد ثلاثة ايام رجع الرجل الى الخالق با كياً شا كياً

يارب — انني لا أفهم نفسي — لكنني متأكد أن المرأة تزججني

أكثر مما تريخني وتسرنني ،

فغضب الخالق وقال - خذ المرأة وأذهب أيها الرجل
ولا تعد الي .

وصاح الرجل - انني لا استطيع أن أعيش معها ،
فاجاب الرب - ولا تستطيع أن تعيش بدونها .

* * *

وأخذ الرجل المرأة ، وهو يندب سوء حظه ويقول :
يا لشقائي - اني لا استطيع أن أعيش مع المرأة .
ولا أستطيع أن أعيش بدونها .

النشودة النوم

انا في غرفتك ، اطوف في جوانب مضجعتك
وطيباً زكياً ينتشر من ذلك المضجع ، فيبعث في الحياة .
جسمي ينتفض من اللذة السماوية التي تنسكب بلا انقطاع في
شرايين روحي .

ما هذا الجو الناعم ، الصامت ، الذي يرفعني الى ما وراء
الجسد البشري ، ويدفعني الى التخيلات الروحية النفسانية !

هل في هواء غرفتك ما يحول الرجل الشرير الى انسان صالح !
ولماذا اشعر وانا جاثٍ بجانبك انني اخطأ الخطاة ؟

اذلك لاني اقابل سيئاتي بصلاحك ، واهوائي بطهرتك ، وسموكت ؟

❖ ❖

هنا تنامين فهيناً لهذا المضجع !

أن نوماً ، لذيذاً ، هادئاً ، ينتظرك فيه — فنامي النوم المريح للفكر
والجسد ، واعتقي نفسك من اوهام الحياة ، وقيود المادة .



ساعة النوم هي الزمن الحاضر ، وهي لك باجمها
فلا تحلمي بالماضي ولا تذكره ، ولا تتألّمي منه ان كان فيه
ما يؤلمك ، ويزعجك — يكفي ان الماضي ، قدمات شقاء وتعاسة
لانه فارقك .

حتى الزمن لا يستطيع ان يعيش بدونك



والغد لك ايضاً — فهل تذكرني في غد
اني احسد الغد ، احسده لانه سيأتي
الك تحنين اليه ، وتبتسمين له
لله ما احلى الغد ، لانه سيقابلك
ومتى نهضت من النوم ، تفجر الغد من صدر الليل وانطرح
عند قدميك فرحاً ببقائك



نامي في مضجعتك الذي تحيط به تموجات النوم الذيد
واحلي الاحلام الوردية، المبهجة، وسط ظلمة الليل الحالك
السواد .

ثم اطفئي السراج وتأكدي ان نجوم السماء تراقبك ،
وملائكة الحب تحرسك .



ان احلام الصبا تحف بجوانب مضجعتك .
وحنان قلبي يخفق مظلالا السرير الذي يهتز لنبضات قلبك
وفي قرب الضحى تأتي الشمس لتوقظك ا
فافتح عينيكَ عندئذ . تشاهدي شعاعها متراكضاً ليقبلك
وفي خلال نومك العميق العميق - اسمحي لي ان انثك
اني أودِّعك - وفي أحضان الآله أودعك

فهرست

الموضوع	صفحة
تقدمة الكتاب	٣
مصر .	٥
الحب حتى الموت	٩
الى المثل الاعلى	١٩
على الوادي	٢١
عواطف أم	٢٦
؟	٣٢
وعلى الأرض السلام	٣٥
بجنون من ؟	٤٣
عيد ميلاد	٤٨
على ضريح من أحب	٥٠
أم خليل بك مطران	٥٦
الى التي أحب	٥٨
باقة ورد	٦٢
رأسم	٦٣
بجياة تعد ؟	٨٣
كيف خلق الله المرأة	٨٧
انشودة النوم	٩٣

